القرآن حُفظ من أجل الإنسان
وما حُفظ للإنسان
لا يحفظ الإنسان إلا به

القرآنُ حُفِظَ للإنسان
وما حُفِظَ للإنسان لا يُحفَظُ الإنسانُ إلاَّ به

إنَّ من رحمة الله بخَلْقه أنَّ ما لا تقوم حياتهم إلاَّ به، قد ضَمِنَ حِفظه لهم، ولم يترك حِفظه لغيره.

حياة الناس لا تكون إلاَّ بالماء، وقد جعل الله من الماء كُلَّ شيءٍ حي.

ضَمِنَ الله حِفظه، ولم يدع ذلك لأحدٍ سواه.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.[1]

إنَّ ما لا تقوم الحياةُ إلاَّ به ـ من ماديَّات الحياة أو معنوياتها ـ قد تكفَّل الله به.

ولولا ذلك لهلك الناس، وبطلت الحياة.

ماذا تكون حالة الناس لو كان الرزقُ بأيديهم، أو تُرِكَ تدبير أمر الخَلق لهم ؟!

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾.[2]

فالماء والهواء، والأرض والسماء، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزرع والثمار، ضرورات لحياة الناس، تكفَّل الله بحِفظها؛ لأنَّ حياة

---

(1) الواقعة: ٦٨ـ٧٠.

(2) الإسراء: ١٠٠.

الناس ـ في دُنياهم ـ لا تقومُ ولا تدوم إلى أَجَلٍ إلاَّ بها.

ومَن تدبر القرآنَ في حياة الإنسان، وعرف حقيقة الحياة، عرف أنَّ الله ـ الذي جعل من الماء كُلَّ شيءٍ حي ـ قد جعل القرآن نُوراً تهتدي به وتستقيم الحياة.

وكثيراً ما يتجاوَرُ الحديثُ عن "الماءِ" مع الحديثِ عن "القرآنِ" في آياتِ الذِّكْرِ الحكيم، ونرى الرسولَ ﷺ يقولُ: « مثلُ ما بعثني الله به من الهُدى والعلم، كمثلِ غَيْثٍ أصاب أرضاً... »[1]

فإنَّ في الماء حياة، وفي القرآن حياة، أيّ حياة.

ولكن شتَّان ما بين حياةٍ وحياة.

حياة مؤقتة لا تدوم، وحياة دائمة لا تنقطع.

حاجة الإنسان إلى الماء في دُنياه.

ولا حاجةَ له فيه إذا فارقَ الحياة.

ولكن صلة القرآن بالإنسان مُمتدة، لا تنقطع بفِراق دُنياه، في موت أو بعث، أو حساب وجزاء.

الإنسانُ في حاجة إلى مَن يهديه سواء السبيل، والقرآن هُدىً للناس يهدي ـ في كُلِّ شأنٍ ـ للتي هي أقوم.

فإذا مات الإنسانُ لازَمَهُ القرآن، حُجَّة له أو عليه.

فقد روى مسلمٌ، عن أَبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

---

(1) البخاري: كتاب العلم.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ.... »[1]

وروى مسلمٌ، عن النَّواس بن سمعان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال:

سمعت رسولَ الله يَقُولُ: « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ ـ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ ـ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ.

وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ:

كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ[٢]

أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[٣]

أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[٤]

تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[٥]

القرآنُ ـ إذن ـ حاضرٌ مع الإنسان في أصعب المواقف وأشدِّها.

وهو وَفِيٌّ لأصحابه، لا يتخلَّى عنهم في هدايةٍ أو شفاعة.

وبه ترتفع منزلتُهم، ويعلو شأنُهم.

روى الترمذيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضي الله عنهما ـ

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا

---

(1) مسلم: كتاب صلاة المسافرين.

(٢) الْغَمَامَة وَالْغَيَايَة: كُلّ شَيْء أَظَلَّ الإِنْسَان فَوْق رَأْسه، مِنْ سَحَابَة وَغَبَرَة وَغَيْرهمَا. قَالَ الْعُلَمَاء: الْمُرَاد أَنَّ ثَوَابهمَا يَأْتِي كَغَمَامَتَيْنِ.

(٣) بِفَتْحِ الرَّاء وَإِسْكَانهَا، أَيْ: ضِيَاء وَنُور.

(٤) الْفِرْقَان وَالْحِزْقَان: مَعْنَاهُمَا وَاحِد، وَهُمَا قَطِيعَانِ وَجَمَاعَتَانِ.

(٥) مسلم: كتاب صلاة المسافرين.

كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا »[1]

وهذا الاستحضار أو الحضورُ مَا كَانَ يغيبُ عن تقدير الصحابة الكرام وهم يعملون بالقرآن.

فنرى أبا الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: « أخافُ أن يُقالَ لي يومَ القيامة: أعلمتَ أم جهلتَ ؟ فأقول: علمتُ، فلا تبقى آيةٌ في كتاب الله ـ آمرةٌ أو زاجرةٌ ـ إلاَّ وتسألني الآمرةُ: هل ائْتَمَرْتَ ؟ وتسألني الزاجرةُ: هل ازْدَجَرْتَ ؟ فأعوذُ بالله من علمٍ لا ينفعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمَع »

هكذا يأتي القرآنُ يوم القيامة ـ أو يُؤْتَى به ـ ليكون حجةً للإنسان أو عليه.

ومن هُنا تتَّضح حاجةُ الإنسان إلى القرآنِ في حياةٍ أو موت.

حيث لا تتوقَّف هدايته، ولا تذهب بركته، ولا تنقطع حُجَّته.

وممَّا يلفت النظر وَصْفُ القرآن بما وُصِفَ به الماءُ؛ لبيان ما فيه من وفْرَةِ خيرٍ وعطاء.

وُصِفَ بقوله: ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ في أربعةِ مواضع، جاء الوصفُ بها ـ هكذا ـ مرفوعاً دلالة ثباتِ البركة ودوامِها.

موضعين في سورة "الأنعام":

﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.[2]

---

(1) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(2) الأنعام: ٩٢.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.[1]

وفي سورة "الأنبياء":

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.[2]

وفي سورة "ص":

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.[3]

أمَّا الماءُ فوُصِفَ بقوله: ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ في موضعٍ واحد. جاء الوصفُ فيه منصوباً في سورة "ق":

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾.[4]

وقد رأينا كيف تمتدُّ بركة القرآن مع مَن ارتوى به ولا تنقطع.

وكيف يُرحَمُ به من اتَّبعه واهتدى بهداه، ولا يضل السبيل.

وهو يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم.

وعندما تتوفر أسبابُ الحياة للناس ينقطع العُذرُ، وتبطل الحُجَّة لمن رَغِبَ عنها.

لا عُذْرَ لِمَنْ مات ظَمَأً ـ والماءُ محمولٌ على ظهره.

ولا حُجَّة لمن ضَلَّ السبيلَ، وأمامه هُدىً ونور.

---

(1) الأنعام: ١٥٥.

(2) الأنبياء: ٥٠.

(3) ص: ٢٩.

(4) ق: ٩.

وهداية الله لخَلقه قد لازمت الإنسانَ من بدايته..

فسبحانَ مَن أعطى كُلَّ شيء خَلقه ثم هدى !

وعرف الإنسانُ بهداية ربِّه عاقبةَ من اتَّبع هُداه ومَن أعرض عن ذكره.

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.[1]

ومن المعلوم أن للقرآن أسماءً كثيرة، منها:

القرآن، والكتاب، والهُدى، والنور، والشفاء...

أسماءٌ كثيرة وصِفات، قد ذُكرت في القرآن في موضعها ومنها (الذِّكْرُ) وقد ورد في القرآن الكريم بصيغٍ متنوعة، في بضعٍ وخمسين موضعاً. وجاء مُقترناً بحِفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.[2]

ولا تخفى دلالة ذلك على كل مستبصر مُستنير.

حُفِظَ الذِّكرُ لمصلحة الإنسان لهدايته ـ في كل شأن ـ وتذكرته.

وفي قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ تأكيدٌ لحفظ القرآن، أيّ تأكيد.

ولم يكن حِفْظُه ـ على النحو الذي حُفِظَ به ـ بمقدورٍ لأحدٍ إلا الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ.

---

(1) طه: ١٢٣، ١٢٤.

(2) الحجر: ٩.

والروح الأمين ينزل بالقرآن على قلب الرسول ﷺ، فيحفظ ما يُلْقَى عليه، ما كان مقدوراً للرسول ﷺ أن يحفظه إلاّ بإحفاظ الله له، ولا كان بمستطيعٍ أن يعرف موضعَ الآية ـ من أيِّ سورةٍ ـ إلاّ بتعليم الله له.

وقد كان من حِرصه ﷺ على حِفظ ما يُلْقَى عليه، أنَّه كان يُبادر إلى أَخْذه، ويُسابق الْمَلك في قراءته.

فأمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا جاءه الْمَلك بالوحي ـ أن يستمع له.

وتكفّل الله له أن يجمعه في صَدره، وأن يُيسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يُبيِّنه له ويُفسّره ويُوضّحه.

حيث قال ـ جَلَّ شأنُه ـ:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.[1]

فكان حِفْظُ القرآن ـ على النحو الذي نَزَلَ به ـ دلالةً تَحُثُّ الإنسان على حُسنِ تدبره والعمل به.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]

القرآنُ محفوظٌ في الأرض وفي السماوات.

---

(1) القيامة: ١٦ـ ١٩.

(2) العنكبوت: ٤٨.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾.[1]

محفوظٌ في جميع مراحل تنزيله:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢ ﴾.[2]

حين بَعَثَ الله رسوله ﷺ، وأنزل عليه القرآن « كان من حِفظه له أنَّ السماء مُلِئَتْ حرساً شديداً، وحُفظت من سائر أرجائها، وطُردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعُدُ فيها قبل ذلك؛ لئلاَّ يسترقوا شيئاً من القرآن، فيُلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمرُ ويختلط، ولا يدري مَن الصَّادق .. وهذا من لُطف الله ـ تعالى ـ بخَلقه، ورحمتهِ بعباده، وحِفظه لكتابه العزيز ».

ولهذا قال الجنُّ: ﴿ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡـَٰٔنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩ ﴾.[3]

---

(1) الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠ .

(2) الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢.

(3) الجن: ٨، ٩.

أي: مَن يَرُومُ أن يسترقَ السَّمعَ اليوم يَجِدْ له شهاباً مرصداً له، لا يتخطَّاه ولا يتعدَّاه. بل يمحقه ويهلكه.

روى الإمام أحمدُ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

((كَانَ الْجِنُّ يَسْمَعُونَ الْوَحْيَ، فَيَسْتَمِعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، وَمَا زَادُوهُ بَاطِلاً.

وَكَانَتْ النُّجُومُ لا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَحَدُهُمْ لا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلاَّ رُمِيَ بِشِهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ.

فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلاَّ مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ.

فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ.

فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ : هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الأَرْضِ)).[1]

القرآنُ محفوظٌ بحِفظ الله، في جميع مراحل تنزيله.

فالنَّازِلُ به من السماء هو الرُّوحُ الأمين.

والسَّماءُ قد حُفِظَتْ من استراقِ الشياطين.

والمُنَزَّل عليه هو الصَّادقُ الأمين، المبعوثُ رحمةً للعالمين.

وجبريلُ عليه السلام ـ وهو أمين الوحي لجميع الأنبياء ـ لا ينزل كيف شاءَ وأنَّى شاء، وإنما يتنزل بأمر، ويُحْبَسُ عن النزول بأمر.

احتبس جبريلُ عن النبي ﷺ، فوجد رسولُ الله ﷺ من ذلك وَحَزِنَ.

وقد روى الإمامُ أحمد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

---

(1) رواه أحمد في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنَّفه.

قال رسول الله ﷺ لجبريل: « ما مَنَعَكَ أن تزورنا أكثر مما تزورنا » ؟

فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾[1] فكان ذلك الجوابُ لمحمد ﷺ.

وقد احتبس جبريلُ عن النبي ﷺ حين سألوه في أمر الرُّوحِ، وأصحاب الكهف، وذي القَرنَيْنِ.

فقال ﷺ: « أُخبركم غداً » ولم يقل: إن شاء الله.

حتى شقَّ على النبي ﷺ، ثم نزل بعد أيام.

فقال له رسول الله ﷺ: « أبطأتَ عليَّ حتى ساءني واشتَقْتُ إليك »

فقال له جبريلُ: إني كنتُ أشوق، ولكني عبدٌ مأمور، إذا بُعثت نزلتُ، وإذا حُبستُ احتبست.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

وأنزل: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[2]

فلا جبريلُ الأمين عليه السلام بمستطيعٍ أن يتنزَّل إلاَّ حين يُؤمَر.

ولا الرسولُ ﷺ بمجيبٍ عمَّا سُئِلَ حتَّى يُخبَر.

وما يُتْلَى على الرسول ﷺ ما كان الرسولُ - من قبلُ - يَدريه أو يعرف ما يُشرَعُ فيه.

---

(1) مريم: ٦٤.

(2) الضحى: ١ـ ٣.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.[1]

وقد كان الكُفّار ـ من مُشْرِكي قريشٍ ـ إذا قَرأَ الرسولُ ﷺ عليهم كتابَ الله وَحُجَجَهُ الواضحة، قالوا له:

﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ ﴾ أي: رُدَّ هذا، وجِئْنَا بغيره من نَمَطٍ آخر، أو بَدِّله إلى وَضْعٍ آخر.

فقال الله ـ تعالى ـ لنبيِّه ﷺ:

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ﴾

أي: ليس هذا إليَّ، إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبَلِّغٌ عن الله.

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.[2]

ما كان رسولُ الله ﷺ يُتَّهَمُ بالكذب بين قومه، وهم الذين لقَّبوه

---

(1) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(2) يونس: ١٥، ١٦.

بـ « الصَّادق الأمين » قبل بَعثته.

ولهذا لما سأل هرقلُ، مَلِكُ الرُّومِ أبا سُفيان ومَن معه، فيما سأله من صفةِ النبي ﷺ.

قائلاً له: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟

قال أبو سفيان: لا.

وكان أبو سفيان ـ إذْ ذاك ـ رأسَ الكَفَرَةِ، وزعيمَ المشركين، ومع هذا اعترفَ بالحقِّ !

فقال له هرقل: فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ »[1]

وقال "جعفرُ بن أبي طالب" للنجاشيِّ مَلِكِ الحبشة: « بَعَثَ اللّهُ فينا رسولاً نعرفُ صِدْقَه وَنَسَبَهُ وأمانَتَهُ. وقد كانت مُدَّةُ مُقامه ﷺ بين أظهُرنا ـ قبل النبوة ـ أربعين سنة ».

القرآنُ محفوظٌ بحِفظ الله، لا يُزادُ فيه ولا يُنْتَقَصُ منه.

ولو كان الرسولُ ﷺ مُفترياً على الله ـ كما يزعم الجاحدون ـ فَزَادَ في الرسالة، أو نَقَصَ منها، أو قال شيئاً من عند نفسِهِ، فنسبه إلى الله، وليس كذلك، لَعَاجَلْنَاهُ بالعقوبة.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ

---

(1) البخاري: كتاب بدء الوحي.

لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٧﴾﴾.[1]

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.[2]

القرآنُ الكريم قد حُفِظَ بحِفظ الله، وبقيَ عزيزاً لا يقتربُ الباطلُ من ساحته.

ومن عِزَّتِهِ أنَّك ترى الغالبَ مغلوباً أمام قوَّته، والمنتصِرَ منهزماً أمام حُجَّته.

وكَم هُزِمَ المسلمون، وانتصر القرآنُ.

وكَم نال العدوُّ من ديارهم، ولم يستطع مغالبةَ حَرْفٍ منه.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.[3]

وصدق اللهُ العظيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[4]

فاللهُ ـ وحده ـ هو الحافظُ له من التبديل والتَّغيير.

ولو أُسْنِدَ الحِفظُ لغير الله، لَوَقَعَ فيه ما وَقَعَ في غيره من تبديل

---

(1) يونس: ١٧.

(2) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

(3) فصلت: ٤١، ٤٢.

(4) الحجر: ٩.

وتغيير.. وهذا من فضلِ الله ورحمته؛ لتبقى رسالةُ الرسل ـ جميعاً ـ محفوظةً بحِفظِ الله للعالمين.

تُعرَفُ منه كلمة الله لجميع المرسلين، وهو يقُصُّ على الناس نَبَأَهُم بالحقِّ، ولا يدع ذلك للمتقوِّلين.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1].

حُفِظَ الذِّكْرُ بحِفظ الله للإنسان حيث كان.

وما حُفِظَ للإنسان ـ لهدايته في كُلِّ شأنٍ وتبصرته ـ لا يُحْفَظُ الإنسانُ ـ في دُنياه وأُخراه ـ إلاَّ باتِّباع هِدايته.

فإذا دعا القرآنُ إلى اعتصام المؤمنين ـ جميعاً ـ بحبل الله، ونهاهم عن الفرقة، في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[2]

فإنَّ حِفظهم من الفَشَلِ وذَهَابِ الرِّيح، متوقِّفٌ على اتِّباع ما أُمِرُوا به، واجتناب ما نُهوا عنه.

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[3]

ومَن تدبَّرَ قضيةَ الشرط والجزاء في القرآن، عَرَفَ أنَّ لكُلِّ عملٍ عاقبته وجزاءه، دُون عُسْرٍ أو تكلُّف.

---

(1) النمل: ٧٦، ٧٧.

(2) آل عمران: ١٠٣.

(3) الأنفال: ٤٦.

والقرآن كُلُّه تَرَى ذلك فيه ولو جاءت الآيةُ منه بأسلوبٍ خَبَريٍّ.

تقرأ ـ مَثَلاً ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝٣٠ ﴾[1]

والآيةُ ليس فيها أداة شرط وجزاء، فتحس منها برُوحِ الشرط والجزاء

مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، ماذا يكون جزاؤه ؟

تُجيبك الآيةُ بالجزاء أبلغ ما يكون الجزاء.

وتقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۝١٠٧ ﴾[2]، وقولَه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ ﴾[3]

فلا يغيبُ عنكَ شرطُ هذا الجزاء.

﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۝١٠٧ ﴾

شرطُه: إيمانٌ، وعملٌ صالح.

كما لا يغيبُ عنك شرطُ ما تُحقّق به المودَّةُ والمحبة، في قوله تعالى:

---

(1) الكهف: ٣٠.

(2) الكهف: ١٠٧.

(3) مريم: ٩٦.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾[1]

إنَّه الإيمانُ والعمل الصالح. ولا تُطلب المحبةُ والمودَّةُ إلاَّ بهما؛ فإنهما من الله، وما عند الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

روى مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ.

فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا، فَأَحِبَّهُ.

قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا، فَأَحِبُّوهُ.

فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ.

قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ... »[2]

فذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

« وما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله، إلاَّ أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودَّتهم ورحمتهم ».

وكان عثمانُ بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ يقول: « ما مِن عبد يعملُ خيراً أو شرّاً إلاَّ كَسَاهُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ رِدَاءَ عمله ».

وعن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ قال:

---

(1) مريم: ٩٦.

(2) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب.

قال رجلٌ: « والله لأعبُدَنَّ الله عبادةً أُذْكَرُ بها ».

فكان لا يُرى في حينِ صلاةٍ إلاّ قائماً يُصلّي.

وكان أوَّلَ داخلٍ إلى المسجد، وآخرَ خارجٍ.

فمكث بذلك سبعةَ أشهر.

وكان لا يَمُرُّ على قومٍ إلاّ قالوا: انظروا إلى هذا الْمُرَائي.

فأقبل على نفسه. فقال: « لا أراني أُذْكَرُ إلاّ بشَرٍ ».

ولم يزد على العمل الذي كان يعمله.

فكان يمرُّ ـ بعدُ ـ بالقوم فيقولون: « رَحِمَ اللهُ فُلاناً الآن ».

وتلا الحسنُ قولَ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

وتستطيع أن تقرأ القرآن الكريم وأن تُحسن تدبره، لترى كيف يُحْفَظُ الإنسانُ بالقرآن، وهو يهتدي بهُداه.

فإنَّ القرآن الكريم يُعطيك نتائجَ الأعمال، وما يجب أن تكون عليه؛ لتحسن النتائج.

بل نراه ـ بفضل الله ورحمته ـ لا يذكر داءً في الناسِ، إلاّ ويبادر بذِكْرِ الدَّواءِ، دونَ إبطاء.

خُذْ مَثَلاً حديثَه عن أصحابِ الكَيْدِ والمكْرِ، وما يودُّونَه، وما يبيِّتُونه، لأهلِ الإيمان.

يذكر داءَهم، وما تطويه صدورُهم، ثم يذكر للمؤمنين مَا

يدفعون به كيدَهم، وما يحفظون به أنفسَهم.

وترى ذِكْرَ الدَّاءِ والدَّواء مُجملاً في آيةٍ واحدةٍ، بعد تفصيل وبيان:

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.[1]

واقرأ الآيتين قبل هذه الآية، من سورة "آل عمران" لترى كيف تُحفَظ بهداية القرآن، وأنت تستجيبُ لندائه، فتأتمر بما أُمِرْتَ به، وتجتنب ما نُهيتَ عنه.

❊ ❊ ❊

(1) آل عمران: ١٢٠.